حضارة الكتاب

نظريَّة في التَّأثيرات الحضاريَّة للطِّباعة والثَّقافة السَّطريَّة القرائيَّة

book civilization
A theory on the cultural influences of printing and the reading culture

كمال عرفات نبهان*

Kamal.mohamed.arafat@gmail.com

ملخص

تعرض الدراسة أفكار ماكلوهان الأستاذ الكندي في علوم الاتصال –فيما يتعلق بتأثير القراءة والكلمة المكتوبة على المجتمع والإنسان، ومن ثَمَّ تتناول الأسس التي يقيم عليها ماكلون نظريته، وأهمها علاقة الوسيلة بالإنسان؛ حيث الوسيلة امتداد للإنسان، وكيفية تأثير الوسيلة في الإنسان؛ حيث الوسيلة هي الرسالة. وتتحدث الدراسة بعد ذلك عن المطبوع كوسيلة في نظر ماكلوهان، وتأثيرات المطبوع والقراءة حسب نظريته، سواء التأثيرات النفسية أو التأثيرات الثقافية والاجتماعية.

الكلمات المفتاحية:

نظرية مارشال ماكلوهان – وسيلة الاتصال – حضارة المطبوع.

* أســـتاذ علم المعلومات والمكتبات وعميد المكتبات الجامعيَّة بجامعة مصـــر للعلوم والتكنولوجيا.

Abstract

The study introduces the ideas of the study by McLuhan, the Canadian professor of communication sciences - with regard to the impact of reading and the written word on society and humans, and then the line of foundations that McLuhan writes about his theory, the most important of which is the relationship of the medium to man; Where the means is an extension of the human being, the effect of the means on the human being ;Where the medium is the message. The study then talks about print as a medium in McLuhan's view, and the effects of print and reading according to his theory, whether psychological influences or cultural influences.

Key words:

Marshall McLuhan's theory, method of communication, print civilization.

تمهيد

الكتاب قديم منذ سجَّل الإنسان أفكارَه كتابةً على الأحجار والبردي وألواح الطين وجلود الحيوان وغيرها، ولكنَه لم يصبح وسيلة اتصال جماهيرية إلا بعد اختراع جوتنبرج للمطبعة والحروف المنفصلة منذ خمسة قرون؛ حيث بدأ عصر جديد للإنسان، وظلَّ الكتاب أهمَّ وسيلة لنقل الأفكار، ويتخطى بها حدود المكان والزمان، حتى القرن العشرين، حين ظهرت وسائل اتصال جديدة، وأصبح على الكتاب أن يحدد علاقاته مع كل منافس جديد، وتنبَّأ البعض بانتهاء عصر الكتاب بعد ظهور وسائل الاتصال التكنولوجية، كالسينما والراديو والتليفزيون، وظلَّ الكتاب قائمًا، ولكن قضية استمراره كوسيلة اتصال أصبحت موضع نقاش ونظريَّات

وأبحاث كثيرة حول الورقية واللاورقية، أو قضية الكتاب الورقي بين البقاء والزوال.[1]

وفي النِّصف الثَّاني من القرن العشرين ظهرت نظرية جديدة أثارت جدلًا عظيمًا، حتى ليعتبرها البعض أخطر نظريَّة في الفكر الإنسانيّ بعد نظريّة النسبيَة، وإن كانت هذه المرة في مجال العلوم الإنسانيَّة، هذه النظرية هي نظرية مارشال ماكلوهان، وهو أستاذ كندي في علوم الاتصال، وتكتسب نظريته خطورتها من أنها تحاول أن تضع تفسيرًا جديدًا لمراحل حضارة الإنسان وتطوراته الاجتماعية على أساس نوع وسيلة الاتصال التي تسود في كل مرحلة منها، وما تفرضه من نسب إدراكية وشعورية وانفعالية، فكلُّ تغيير يحدث في وسائل الاتصال يحدث في مقابله تغيير اجتماعي، وكل وسيلة اتصال لها حضارتها التي تقوم عليها. فقد انتقلت الحضارات من الحضارة السمعية الشفهية إلى الحضارة الكتابية منذ اختراع الإنسان للكتابة إلى الحضارة الطباعية بعد ظهور المطبعة، حتى وصلت إلى حضارة الوسائل التكنولوجية الحديثة، وهي وسائل الاتصال المسموعة والمرئية كالتليفزيون والسينما والراديو والتليفزيون ... ويهمنا أن نتناول من هذه النظرية ما تذهب إليه بخصوص "حضارة المطبوع"، فماكلوهان يقيم كل التراث العقلي والحضاري الغربي على فرض واحد، هو أنَّ التجربة الرئيسية للإنسان الغربي قامت أساسًا على اختراع الطباعة منذ القرن الخامس عشر حتى القرن العشري، ويتحقق هذا الجانب من ناحية، ونظرًا لأهمية المنهج الذي يستخدمه ماكلوهان في التفير الاتصالي للحضارة من ناحية أخرى.

نظرية ماكلوهان

يمكن القول بأن أعمق الدراسات التي تناولت بالتفسير والتحليل تأثيرات القراءة والكلمة المكتوبة على المجتمع والإنسان، هي دراسات مارشال ماكلوهان Mar-shall Mc Luhan الذي اهتم بالتفكير النظري القائم على الدراسات التاريخية والتأملات الحضارية من أجل فهم طبيعة الاتصال الاجماهيري وأثره على العلاقات الإنسانية[2].

وقد دفعت دراسات ماكلوهان كمًّا هائلًا من الأبحاث العلمية المتنوعة، أفاد منها في الوصول إلى نظراته الثاقبة المدهشة التي لفتت انتباه الباحثين والعاملين في مجالات الإعلام ورجال الأعمال والمثقفين[3] إلى أهمية تفسيراته الهامة ومنهجه في الربط بين الوسيلة وتأثيراتها الحضارية والاجتماعية والنفسية والتكنولوجية.

وليس الاهتمام بتأثيرات الكلمة المكتوبة خصوصًا بعد ظهور الطباعة قاصرًا على ماكلوهان فحسب، فقد انتبه كثيرون إلى ذلك، ومنهم ول ديورانت Will Durant المؤرخ الأمريكي، الذي قال "إن الطباعة كانت ضمن الأسباب التي وضعت نهاية للعصور الوسطى".[4] كما أوضح أوروالد شبنجلر أن القرون الخمسة الأخيرة شهدت الدور الذي لعبه استخدام المطبوع في نقل حضارة الغرب بالتدريج إلى ما أسمها "حضارة الكتاب والقراءة" وحسب عبارته الألمانية[5] (Buch Und lessen Kultue)، كما ظهرت في وقت مبكر اكتشافات ميلمان باري Milman Parry بالغة الأهمية في رسالته العلمية للدكتوراه بالفرنسية عام 1928، حول الخصائص المميزة للفكر الشفاهي كما درسه في شعر هوميروس اليوناني

القديم الذي يقال إنه عاش حول 850 ق.م،[6] وهي خصائص تلقي الضوء على الجوانب المقابلة في الفكر الكتابي المقروء. كما ظهرت دراسات كثيرة تهتم بهذا الجانب أو ذاك كم تأثيرات الانتقال الشفهي أو الكتابي، مثل هافلوك ولورد وجاك جودي ومايلز فولي، وأونج الذي ألَّف كتابًا عن تأثير الطباعة في عمليات الفكر في القرن السادس عشر، وأصدره عام 1958، وكانت هذه الدراسات تنتمي إلى مجالات مختلفة كالأدب والأنثروبولوجيا وغيرهما.[7]

ومن الدراسات الهامة في هذا المجال أيضًا، دراسة ميدانية مبكرة (1940) قام بها وبيلز وبيلسون وبرادشو بعنوان "ماذا تفعل القراءة بالناس (What reading does to people)[8] ودراسة هوارد وينجر (Winger .H) "الأبعاد التاريخية لدور الكتاب في المجتمع"، والتي رصد فيها بعض التغيرات الاجتماعية الحيوية التي تنتج عن الأفكار التي ينشرها الكتاب والقراءة.[9]

ولكن دراسات ماكلوهان لتأثيرات المطبوع والكلمة المقروءة قد اكتملت في إطار منهج تحليلي شامل يتناول القراءة كوسيلة اتصال، كما يتناول وسائل الاتصال الأخرى وتأثيراتها المختلفة، مما جعلنا أمام رؤية متكاملة لأحداث الماضي والحاضر وما يتوقعه في المستقبل مع تطور وسائل الاتصال الجماهيرية الإلكترونية، والصراع بين خصائص كل نوع من الوسائل، وما تحدثه من عالم جديد يقوم على أنقاض عالم سابق خلقته وسيلة سابقة تمت أو تتم إزاحتها.

كوكب جوتنبرج:

ويبدأ ماكلوهان تناوله لتأثير القراءة والكلمة المكتوبة منذ اللحظة التي أنجز فيها جوتنبرج ابتكاره للحروف المتحركة وللمطبعة، باعتبار أن وسيلة اتصال جديدة

في شكلها وطبعيتها وانتشارها قد ظهرت لكي تلعب دورها كعامل مؤثر في التاريخ والحضارة وتغيير الإنسان والمجتمع، وبالرغم من أن الجميع قد أدركوا أن ظهور المطبوع كان إيذانًا بظهور تغيرات خطيرة، إلا أن هذه التغيرات تأخذ في نظرية ماكلوهان شكل ثورة كاملة في جميع المجالات، غيرت ملامح المجتمع الإنساني، وبدَّلت خصائص نفسية كثيرة لدى الإنسان، وشكَّلت علاقات جديدة، وخلقت أشكالًا اجتماعية جديدة من خلال تراكم التأثيرات والتفاعلات، ومن خلال عمليات البناء والهدم معًا.

وقليل من الناس كان لهم هذا التأثير الفعال الذي أحدثه ماكلوهان في عقول متنوعة كثيرة، حتى في عقول أولئك الذين لم يوافقوه، وقد استمر تيار البحث في هذا المجال حتى وصل إلى مراحل متطورة، منها ما ذهب إليه جوليان جينس عام 1977، من الربط بين مراحل الشفاهية والكتابية وبين بين تغيرات عصبية وفسيولوجية في عقل الإنسان[10]، ولكن تفسيرات ماكلوهان تظل محتفظة بجدتها وديناميتها، وقدرتها على العصف الفكري، تارة بدقة ومعقولية التفسير والطرح، وتارة بغرابة الفكرة ومخالفتها للمألوف، وملامح الإبداع التي تتبدى في كل أفكاره، وحتى لو تحفظنا أمام بعضها، أو خالفناه في بعضها الآخر، فإنه في كل الأحوال ينقلنا من غرفة التفكير التقليدي، إلى ساحة التفكير الإبداعي.

وبداية يرى ماكلوهان أننا نفتقر إلى فَهم التأثيرات النفسية والاجتماعية للمطبوع، مما يحير أي دارس للتاريخ الاجتماعي للكتاب المطبوع، فمن النادر على مدى الخمسة قرون الماضية –على حد قوله– وجود ملاحظة أو فهم واضح

لتأثيرات المطبوع على وعي وإدراك الإنسان (Seneibiliy)، كما يرى أن نفس الملاحظة يمكن أن تصدق بالنسبة لكل وسائل الاتصال الأخرى[11].

وقد تناول ماكلوهان تأثيرات الكتاب المطبوع في معظم مؤلفاته، ولكن أهمها في هذا المجال مؤلفاته التالية:

Mc Luhan, Marshal:

1. The Gutenberg Galaxy: The making of typographic man.
2. Undrstanding media: The extensions of man.[12]
3. The medium is the message.
4. The cool medium.

ومن الواضح من عنوان الكتاب الأول "كوكب جوتنبرج"، نسبة الكوكب الأرضي في رأيه إلى جوتنبرج في المرحلة التالية على اختراع الطباعة؛ لأن الكوكب قد أعيد ترتيبه (The galaxy reconfigurated)[13] نتيجة للنسب الجديدة التي أوجدها المطبوع في نبية الإنسان والمجتمع وسائر مظاهر الحياة والمؤسسات بأنوعها، وقد ظلت مملكة جوتنبرج متسيدة على الكوكب حتى هزت عرشه وسائل الاتصال الإلكترونية الحديثة، وهذا موضوع آخر يحتاج إلى دراسته بالتفصيل.

ولا يمكن فَهم ما يذهب إليه ماكلوهان في تفسيره للتأثيرات التاريخية والحضارية للمطبوع والقراءة، إلا بعد التعرف على القواعد أو الأسس التي يقيم عليها نظريته وينطلق منها، والتي بدونها تبدو استنتاجاته غاضمة مبهمة، وأهم هذه الأسس:

أولًا: علاقة الوسيلة بالإنسان؛ حيث "الوسيلة امتداد للإنسان".

ثانيًا: كيفية تأثير الوسيلة في الإنسان؛ حيث الوسيلة هي الرسالة.

وفيما يلي عرض لهاتين القاعدتين كما يحددهما ماكلوهان.

أولًا: الوسيلة امتداد للإنسان:

يتناول ماكلوهان كل الوسائل التي يستخدمها الإنسان في حياته، باعتبارها امتدادات Extensions لقدرات بشرية معينة سواء كانت قدرات نفسية أو مادية[14] "فكل الأشياء المادية والوسائل التي يبتكرها أو يكتشفها، هي توسعات وإمكانيات تضاف إلى قدراته الطبيعية. ويبدو الامتداد كما لو كان تضخميًا لعضو أو حاسة أو وظيفة (Orang, sense, or function) لدى الإنسان[15]، فالعجلة تعتبر امتدادًا للقدم[16]، وتؤدي شبكات النقل الآن ما تعودنا أن نؤديه بأقدامنا وظهورنا"[17]، والملابس هي امتداد للجلد[18]. كما تعتبر الملابس والمنازل امتدادًا للعمليات البيولوجية التي تضبط حرارة جسم الإنسان، والمال هو امتداد واختزان لطاقة العمل، والأسلحة التي تتطور حتى تنتهي بالقنبلة الذرية هي امتداد للأسنان وقبضة اليد[19] والدائرة الكهربائية هي امتداد للجهاز العصبي المركزي[20] أما الكتاب فيتعبر امتدادًا للعين[21]، ولذلك فإن ظهور الطباعة والكتاب المطبوع قد فجَّر طاقة هائلة وامتدادًا عظيمًا، أتاح للإنسان الرؤية والمعرفة في أبعاد لا حدود لها، متخطيًا بذلك حدود الزمان والمكان.

وهو يعتبر أن توسع أو امتداد أية حاسة يويح Displaces أو يغير alters أهمية الحواس الأخرى، ويغير الطريقة التي نفكر بها، والطريقة التي نرى بها العالم ونرى أنفسنا؛ حيث يلاحظ مثلًا أن اختراع الحروف الهجائية قد خلق

الثقافة الكتابية (literate culture)، التي كانت مختلفة تمامًا عن الثقافة القبلية الشفهية، كما سوف نرى في هذه الدراسة.

وهكذا نجد ماكلوهان في نظريته يعالج وسائل الاتصال بالجماهير من حيث هي أدوات تكنولوجية بصرف النظر عن المضمون الذي يحتويه أو توصله، "فالناس يتأثرون لا شعوريًّا بوسائل الاتصال، ولا يلبث هذا التأثُّر أن يصبح السر الحقيقي الكامن وراء السلوك الإنساني[22]. ووسيلة الاتصال عند ماكلوهان، هي جزء من العملية التكنولوجية التي يتحمل أن تغير وجه المجتمع كله، سأنها في ذلك شأن التطورات الفنية الأخرى، والاهتمام حينئذ مركز على تأثير الوسيلة بصرف النَّظر عن مضمونها أو طريقة استخدامها، سواء لنشر المعلومات أو للترفيه أو للتعليم، وبذلك يمكن التمييز بين منهجين في النَّظر إلى وسائل الاتصال:

(أ) منهج مخالف لمنهج ماكلوهان، يرى أن الوسيلة تنقل مضمونًا وأن المضمون هو الذي يؤثر، بما يحمل من أفكار أو رسائل جيدة أو رديئة.

(ب) منهج ماكلوهان الذي يرتكز على أن الوسائل هي جزء من سلسلة التطور التكنولوجي، وهي تؤثر بطبيعتها كوسائل لها آلية معينة، وبذلك فإن مضمون وسيلة الاتصال لا ينفصل عن تكنولوجية الوسيلة ذاتها، وطبيعة الوسيلة التي يتصل بها الإنسان سواء كانت شفهية أو مقروءة أو سمعية بصرية ... إلخ، هي التي تشكل الأفراد والمجتمعات أكثر مما يشكلها مضمون الاتصال أو الرسائل والأفكار التي تصل إلى مستخدم الوسيلة[23].

ثانيًا: الوسيلة هي الرسالة

ومن أهم الأسس التي يقيم عليها ماكلوهان نظريته، ومن أكثرها غرابة وإثارة للجدل معًا، مقولته الشهيرة بأن الوسيلة هي الرسالة " The medium is message"، فوسيلة الاتصال هي وسلط يحيط بالإنسان ويؤثر فينا تأثيرًا كاملًا، فهي بالغة الشمول في تأثيراتها الشخصية والسياسية والاقتصادية والجمالية والنفسية والأدبية والأخلاقية والاجتماعية، حتى إنها لا تترك جانبًا فينا بغير أن تلمسه وتؤثر فيه وتغيره، فالوسيلة هي الرسالة، وأي تفهم جديد للتغيير الاجتماعي والثقافي هو أمر متعذر بدون معرفة الطريقة التي تعمل بها الوسائل كوسط Environment يحيط بنا[24]. "والوسيلة بما تحدثه من تغيير في الوسط، تثير فينا نسبًا استثنائية (ratios Unique) من الإدراكات الشعورية Sense perceptions، والتوسع في أي حاسة بعينها يغير من الطريقة التي نفكر ونفعل بها، ومن الطريقة التي ندرك بها العالم، وحينما تتغير هذه النسب يتغير الإنسان[25].

وهكذا يحدث تأثير وسيلة الاتصال **نتيجة لخصائصها الآلية كوسيلة مادية وليس بمضمونها** الذي توصله، فالأثر يحدث عن طريق الوسط الذي تخلقه، وهكذا "فعندما يخترع الإنسان الوسيلة، فإن الوسط الذي يخلقه هذا الاختراع يصبح هو ذاته وسيلة، ويتحدد دور الإنسان من جديد من خلال هذا الوسط[26].

"والوسيلة هي الرسالة"، تعني أيضًا أن لكل وسيلة جمهورًا من الناس الذين يفوق حبهم لهذا الوسيلة اهتمامهم بمضمونها، فكما يحب بعض الناس أن يقرأوا

من أجل الاستمتاع بممارسة تجربة القراءة، فإن البعض كذلك يحب التليفزيون بسبب الشاشة التي تتحرك عليها الصورة المصاحبة للصوت[27].

وعلى هذا الأساس يرى ماكلوهان أن تشكيل المجتمعات يتوقف على طبيعة الوسيلة السائدة نفسها وليس على مضمونها، وأن الكتاب قد يتضمن مادة تفافهة أو قيَّمة، ولكن ليس لهذا دخل له في التغيرات الحقيقة التي يسببها التليفزيون، فالرسالة الأساسية في الكتاب هي الاتصال السطري أو "المطبوع"، وفي التليفزيون هي "التليفزيون" نفسه، هي العملية نفسها، ولا يهم إذا عرض التليفزيون عشرين ساعة يوميًّا من أفلام رعاة البقر التي تنطوي على عنف وقسوة، فالمضمون غير هام، ولكن التأثير العميق لعملية مشاهدة التليفزيون هو الرسالة الحقيقية[28].

وينبغي أن نشير إلى أن مقولة "الوسيلة هي الرسالة" هي من أكثر مقولات كاكلوهان إثار للجدل؛ لأنها من ناحية تفسر لنا جوانب كثير من تأثير وسيلة الاتصال على سلوك وإدراك الإنسان، الذي يمكن أن نسميه **إنسان الوسيلة**، سواء كان إنسان الاتصال الشفهي، أو إنسان الطباعة، أو إنسان التليفزيون ... إلخ، ولكنَّها من ناحية أخرى تنفي جانبًا هامًّا من الحياة الفكرية للإنسان؛ لأنَّها ليست مجموعة من الاستجابات الآلية للوسيلة، بل إن لها غاياتها وقيمها، وذلك يؤكد أيضًا أهمية المضمون الذي توصله أداة الاتصال، فلا نستطيع أن نتجاهل ما تحتويه الرسالة من مضمون جيد أو رديء، بنَّاء أو مدمرًا، سواء في القاهرة أو التليفزيون أو بأي وسيلة أخرى.

المطبوع كوسيلة في نظر ماكلوهان

ومن هذا المنطلق يفسر ماكلوهان تأثير الحروف المتحركة والطباعة كوسيلة تحمل رسالتها في طبيعتها المادية وتأثيراتها النفسية والاجتماعية في الإنسان والمجتمع، التي تحدث أساسًا نتيجة لشيء واحد وعملية واحدة هي (المطبوع – الوسيلة – الرسالة)، أو (القراءة – الوسيلة – الرسالة)، وحينما ينظر ماكلوهان إلى التاريخ، يأخذ موقفًا يمكن أن يسمى بـ"الحتمية التكنولوجية" (Technological determinism)؛ حيث يؤمن بأن الاختراعات التكنولوجية الهامة هي التي تؤثر تأثيرًا أساسيًّا على المتجمعات[29]. وهذه الحتمية التكنولوجية التي تكاد توحي بها نظرة ماكلوهان، تقف في مواجهة حتميات أخرى في تفسير السلوك والتاريخ والحضارة.

ويستمر ماكلوهان في مقولاته وتفسيراته المبهرة التي تشبه الصدمات الكهربائية؛ حيث يرى "أن أعظم إنجازات التقدم الحضري، إنما هي عمليات حطمت المجتمعات التي تحققت فيها"[30]. وعلى هذه الأسس يمكن فهم ما يذهب إليه ماكلوهان من أن المطبوع بما له من خصائص هي جزء من طبيعته ومن طبيعة الحروف التي تتكون منها سطوره، قد خلق أشكالًا ثقافية وحضارية واجتماعية هي بحق ثقافة وحضارة المطلوع سواء بالمعنى الاجتماعي أو المعنى المعرفي لمصطلح الثقافة، وبكل ما يعنيه مصطلح الحضارة من أبعاد، كما يمكن من خلال نظريته أن نجد ما يسمى: ثقافة سطرية أدبية.

وبتتبع تأثرات "الامتداد الطباعي للإنسان" (Typographic extension of man)، والتي حدثت نتيجة لبعض خصائصه منفردة أو متحدة،

يمكن أن نعرض هذه التأثيرات التي يقسمها ماكلوهان إلى تأثيرات نفسية (Psychically)[31] وتأثيرات اجتماعية (Socially)[32]، وهو يضع تحت التأثيرات الاجتماعية كل التأثيرات الاقتصادية والسياسية والفنية والأدبية والثقافية والتعليمية والتكنولوجية والإدارية والاتصالية.. إلخ، وإن كنا نلاحظ صعوبة التفرقة الحاسمة بين ما هو نفسي وما هو اجتماعي، نظرًا لشدة الارتباط وحميمية التفاعل بينها، كما سيتضح في التأثيرات التي أقوم بعرضها فيما يلي، بعد أن قمت بتتبعها متفرقة في بعض مؤلفات ماكلوهان، مع ملاحظة أنه يعرض أفكاره بطريقة مكثفة وتقترب أكثر إلى التلميح، وهي أقرب إلى لغة الشعر، وهذا هو الأسلوب المميز لماكلوهان، إلى جانب صياغته لمصطلحات وتركيبات جديدة، وقد حرصت على إثبات كثير منها بالإنجليزية داخل النَّص؛ تحقيقًا للفائدة.

تأثيرات المطبوع والقراءة حسب نظرية ماكلوهان

أولًا: التَّأثيرات النَّفسية

1- فصل الفكر عن الانفعال وتجزئة الحواس

يتصف الإنسان البدائي بأنَّه يفكر وينفعل في آن واحد، ولا يستطيع الفصل بين الاثنين؛ لأنه متأثر بالاتصال الشفهي الذي تنتقل فيه الأفكار مصحوبة بتأثير صوت المتكلم وانفعالاته وحركاته وحركات وجهه أثناء الكلام، فالموقف الشفهي موقف كلي موحَّد ساخن، ويلاحظ ماكلوهان عكس ذلك في الاتصال القرائي السطري الكتابي "فقد كانت الطباعة على وجه الدقة، هي القوة التي تؤدي إلى فصل الفكر عن الشعور، أو الفصل بين التفكير والانفعال، وإلى قدرة الفرد على

الفعل المستقل، أو أن يستطيع الإنسان أن يفعل بغير أن ينفعل، أي أن يفعل بدون أن يتأثر، أن يتصرف متحررًا من رد الفعل، والطباعة هي التي فصلت الإنسان القارئ عن المجتمع التقليدي القبلي ذي الروابط الأسرية المتماسكة في كل مظاهر الحياة الشخصية والاجتماعية[33]، فالطباعة جعلت الإنسان يخرج عن الجماعة التقليدية وعن أفكارها وصياغتها المحكمة؛ لكي يتصل، ينفصل عن روابطه وإطاره لكي يتصل بآخرين ليسوا من جماعته أو من إطاره، وهي أفكار لا تأتيه شفاهية ساخنة بل باردة على صفحة من الورق، وهو لا يستقبل أصواتًا بل يقرأ كتابة صوتية وهي الحروف، وهذه "الكتابة الصوتية هي وحجدها القادرة على فصل وتجزئة الحواس، والتخلص من التعقيد في دلالات الألفاظ الذي هو من خواص الاتصال الشفهي، وهذه العملية الكتابية تحدث التجزيء التحليلي للحياة الشعرية"[34]. فالاتصال القرائي يحدث نوعًا من الفصل بين عناصر الاستجابة في العملية الاتصالية، مما يمكن أن نسميه بالشيزوفرانيا القرائية.

2- <u>الموضوعية واستقلال الرأي والمنهج العلمي:</u>

وربما كانت أعظم هبات الطباعة للإنسان في نظر ماكلوهان، هي ذلك التجرد أو الاستقلال في الرأي (detachement)، وعدم الانضواء أو التبعية (Non-envolvement) كما وهبته القدرة على الفعل المستقل، ومنذ عصر النهضة (الأوروبية)، فقد مجَّد العلم هذه الهبة[35]. وتتضح هذه الفكرة إذا تابعنا أفكار ماكلوهان حيث يقول: "ولقد أوجدت الطباعة الكتاب الذي يمكن حمله، والذي يستطيع النَّاس قراءته على انفراد وبمعزل عن الآخرين .. وقد أضاف المطبوع الشيء الكثير إلى مبدأ الفردية الجديد (cult of individualism)، وأصبحت

وجهة النظر الخاصة والمحددة أمرًا ممكنًا، كما أن الإلمام بالقراءة قد منح القدرة للفرد على استقلال الرأي وعدم الانضواء"[36].

وعلى عكس ذلك يعنى فعل التعلم أو التعرف في الثقافة الشفهية إنجاز انتماء حميم ومشاركة وجدانية جماعية مع "المعروف"، ويتضمن ذلك أشكالًا من الاحتواء، أما الكتابة فتفصل بين العارف والمعروف، وتبني شروطًا للموضوعية، بمعنى عدم الارتباط الشخصي والابتعاد[37]، بل ويصل الأمر إلى المقابلة الحادة التي يضعها جاك جودي (1977) بين خصائص الشفاهية والكتابية، تصل إلى الانتقال من السحر إلى العلم، أو مما يسمى "ما قبل المنطقي" إلى حالة الوعي التي تزداد عقلانية، أو من "العقل المتوحش" إلى الفكر المستأنَس[38].

ولقد حفل تاريخ الفكر الإنساني بمحاولات عديدة لتأكيد القيمة الأخلاقية للتجرد والموضوعية، وهي أساس المنهج العلمي في الفكير، ويرى ماكلوهان أن الذي مكَّن لهذه القيمة من الازدهار هي تلك الصفات التي اكتسبها إنسان الطباعة، "فهو يتصف بالاستقلال في الرأي Loftiest detachement، والتجرد الأخلاقي ethical integrity، وذلك التجرد الذي يجعله غير متحيز، وكل ذلك يقف علامة على المزاج العلمي للمجتمع القارئ المستنير enlightened.. وعلى التخصص spicalization، وتجزيء (fragmentation) المعرفة والإدراك (sensibility)[39].

"تلك كانت الهبة عظيمة الأثر التي وهبتها القراءة والطباعة للإنسان، وهي القدرة على الفعل المستقل، وعدم الانضواء، وفصل الفعل عن الشعور والانفعال، والذي بدونه يصبح الإنسان مشوشًا مترددًا (hwsitant & hampered)[40].

وجدير بالتنويه أن الحياد والموضوعية والمنهج العلمي لم تكن كلها نسبًا إدراكية وخصائص حضارية غائبة فأوجدها المطبوع، بل كانت موجودة وتأسست جذورها في الفكر الإسلامي منذ قرون بعيدة، ولكن الذي نفهمه أن ماكلوهان يشير إلى قوة التدعيم التي خلقها المطبوع لهذه الخصائص، والتمكين لها مما أدى إلى ازدهارها وتحولها إلى صفة غالبة نسبيًّا في الفكر والحضارة المتأثرة بالمطبوع.

3. التفكير الخطي والترتيب:

ويرى ماكلوهان أنه ليس هناك ما يفوق ثقافة الطباعة من حيث خاصيتها: "ماكن لكل شيء، وكل شيء في مكانه place for everything and everything in its place"[41]، والطباعة هي أعظم الوسائل التي تحقق الاستمرارية والخطية Linearity بالتكرار المجزأ[42]. وهي خواصل الحروف المتتابعة للطباعة. وكان ذلك هو الوسط environment الذي فرضته الوسيلة المطبوعة نفسها، كلمة بعد أخرى، وجملة بعد أخرى، وفرة بعد أخرى، وشيء واحد في الوقت الواحد، في خط منطقي متصل.. وذلك بعكس المجتمع الشفاهي الذي يعتمد على الأذن ear oriented، الذي يميل إلى استقبال خبرات كثيرة في نفس الوقت والتعبير عنها[43]. "ولا يلبث الوسط الذي يخلق الإنسان أن يصبح هو وسيلة نحو تحديد دوره من خلاله، وقد أدى اختراع الحروف المطبوعة إلى التفكير الخطي Linear thinking أو المتتابع (Sequential) وأدى إلى فصل الفكر عن العقل[44]".

4. التركيز البصري والمنظور (في الرسم المجسم):

"ولقد كان تحصيل المعلومات اعتمادًا على حاسة السمع عند الرجل الأمي، لا يتيح له التركيز؛ لأن الأذن لا يمكنها أن تركز، ولكن العين يمكن أن تركز في عملية القراءة، وهي عملية استخدام لعيوننا لتعلم الأشياء التي لا تستطيع أن تراها، وهذه المقدرة الفريدة تعتمد على العين؛ لأنها تركز وتتبع الأشياء بتوالٍ[45]". ومن الاستمرارية والتماثل والترابط في عملية القراءة، ينبع التركيز البصري (Visual Stress)[46] وقد أكد اختراع الطباعة التركيز البصري الجديد، ووسع من إمكانياته[47]. ونفسيًا، فإن الكتاب المطبوع، وهو امتداد لحاسة الإبصار، قد كثَّف المنظور والنقطة الثابتة للرؤية، واتحد ذلك مع التركيز البصري الذي يقع على نقطة الرؤية point of view، ونقطة الزوال، التي تخلق وهم المنظور Perspcctive (وهو تمثيل الأشياء ذات الأبعاد الثلاثة على سطح ذي بعدين فتبدو وكأنها نافذة إلى العمق)، ومن خلال ذلك، تحقق خداع آخر، وهو أن الفراغ مرئي Visual ومنتظم متسق Uniform، ومستمر continuous[48]. وذلك شكل جديد من التصور الثلاثي الأبعاد، الذي يختلف عما سبقه من تصوير ذي بعدين، والذي يسميه ماكلوهان بالموزايكو، وهو المنهج المتبع في التصوير الإسلامي القديم كما نلاحزه عند بهزاد وغيره من عباقرة التصوير الإسلامي.

5. الأبعاد الثلاثة في الكُونْتَرْبنط (في الموسيقى الغربية):

ولم تقتصر تأثيرات الطباعة على تكثيف المنظور في فن التصوير، بل تخللت كل وجه في الفنون والعلوم في القرون الخمسة الماضية كنتيجة لحضارة المطبوع؛ فالموسيقى الغربية فيها كونتربنط Counterpoint (أو طباق)، "وهو

يعتمد على صوت مقابل صوت، وعلى تعدد الخطط اللحنية في أنماط متعددة، بحيث يكون لكل تركيب نغمي تركيب يقابله ويوازنه وإن لم يشابهه، ويتقابل صوت غنائي من طبقة ما مع صوت غنائي من طبقة أخرى، وتنقلب المسافات أو الأبعاد الموسيقية اللحنية الفاصلة بين أصوات اللحن فتتحول كل مسافة صاعدة إلى هابطة والعكس صحيح، مع تفاصيل فنية أخرى تحكم الكونتربنط[49]، وهو ذو ثلاثة أبعاد ويشبه في ذلك التصوير المجسم الذي خلقه المنظور الناتج عن تأثيرات المطبوع، وذلك بعكس الموسيقى الشرقية التي لا توجد فيها الأبعاد الثلاثة بل تشبه التصوير بالموزايكو ذي البعدين.

6. **تنمية التعبير الذاتي والإبداع:**

وتبدو تفسيرات ماكلوهان لتأثيرات حضارة المطبوع متواصلة في نفس الاتجاهات السابقة، ومرتكزة على نفس الأسس، وإن امتدت إلى مجال آخر من مجالات الحياة النفسية والانفعالية لإنسان الطباعة، وهو مجال الفن والأدب.

ونلاحظ هنا أنه يربط بين بعض خصائص المطبوع والحروف المقروءة مثل التجزيئية والتحليلية، وبين حدوث الانفصالية في الإدراك، كما يربط بين خطية وتماثل ودقة ترتيب الحروف، والامتداد الطباعي للإنسان وبين ظهور أشكال ثقافية عظمى منذ القرن الأول للطباعة، وهو في نفس الوقت بداية عصر النهضة في أوروبا.

كما نلاحظ أنه يذكر تفسيراته واستنتاجاته هذه في جمل خاطفة سريعة، شديدة التركيز تشبه صيغة القوانين. ففي كتابه: كيف نفسهم وسائل الاتصال يقول: "ولقد كان للقوة التجزيئية fragmentray والتحليلية analytic للكلمة المطبوعة،

تأثيرها في حياتنا النفسية، فقد أحدثت تلك الانفصالية في الإدراك dissociation of sensibility التي في الفنون والأدب، منذ سيزان cezanne وبودلير Baudelaire، وقد أصبحت من أهم العوامل في كل برنامج إصلاحي من أجل ترقية الذوق والمعرفة[51]".

وهكذا يرى أن ذلك التحرر والانفصال قد ساعدا على تنمية القدرة على التجزئة الذاتية والإبداع في الفن والأدب، وأصبح إنسان الطباعة متسلحًا بروح المغامرة الشخصية (private enterprise) التي شجعت المؤلفين والفنانين على تنمية التعبير الذاتي، وهي نفس الروح التي قادت الآخرين لكي يخلقوا المؤسسات العملاقة سواء في التجارة أو غيرها.

ومن الطريف هنا أن نلاحظ الربط بين ظهور المشروع الفني والأدبي المنطلق من روح الإبداع والمغامرة الشخصية، وبين المشروع أو المؤسسة العملاقة في مجال التجارة أو الصناعة، المتأثرة بنفس الروح المتسمة بانطلاق الدوافع الذاتية، وهي روح المشروع الرأسمالي في أوروبا عصر النهضة التي خلعت أثواب الإقطاع وأشكال التبعية سواء للإقطاعي أو للكنيسة.

ثانيًا: التأثيرات الثقافية والاجتماعية للمطبوع:

7. تغيير طبيعة التأليف:

وكان لهذا التأثير الفضل في في تأكيد الوحدة الموضوعية للعمل الأدبي، وأصبح الأديب والجمهوري قادرين على ذلك. "فقلد أثرت خاصية الاتساق

Uniformity أيضًا في مجال الحديث واللكتابة، مما أتاح أمام القارئ أسلوبًا واتجاهًا مميزين، وأصبح هناك موضوع يتخلل كل تكوين العمل المكتوب"[53].

"وهكذا فإن ظهور المعالجة المتجانسة homogeneous التي تتصف بكل من التميز والعمق، قد مكنت الكاتب من الوصول إلى الجمهوري العريض Mass piblic، وأصبح ما يتعين عليه تقديمه إلى الجمهور، هو عمل متجانس ينبع من تجربة مشتركة"[54].

ونلاحظ أن جون ديوي قد توصل إلى هذه الملاحظة قبل ماكلوهان؛ حيث يرى أن الطباعة قد عملت على تعديل مادة الأدب تعديلًا عميقًا بالغ الأثر، ولم تكن اللغة المنطوقة في يوم من الأيام لغة "أدبية" إلى أن ظهرت الطباعة، وعم استخدام القراءة .. ولد عملت الطباعة على تحقيق امتداد ضخم ليس فقط في الحجم أو المقدار، بل في التنوهع الكيفي والدقة الوصفية، فضلًا عن أنَّها قد أوجدت منظمة لم يكن لها وجود من قبل[55].

وثمة ملاحظة أخرى شديدة الأهمية، يذكرها ديورانت في قصة الحضارة، وهي أن الطباعة قد أثرت في نوع الأدب وقوامه بإخضاع المؤلفين لجيوب الطبقات الوسطى وأذواقها بدلًا من إخضاهم لمن يرعاهم من الطبقتين العليا والكهنوتية[56]، وذلك يعني مجالات جديدة للأدب، ومذاهب جديدة في التعبير وتجارب جديدة في اللغة والأسلوب.

8. **ظهور الجمهور**:

"وقد خلقت الطباعة بواسطة الحروف المتحركة، بيئة جديدة وغير متوقعة تمامًا، خلقت الجمهور Puplic. ذلك أن تكنولوجيا المخطوط لم تكن لها قوة

الامتداد الضرورية لخلق جمهور على مدى قومي[57]. ولكن تكنولوجيا المطبوع، بإمكانياتها الجديدة، أتاحت "التكرار الآلي لنفس النص، الذي خلق جمهورًا قارئًا"[58]. وخرجت صفحة الكتاب، في شكل صورة متكلمة للحياة العادية، فحدث التحول الحاسم من الزبون إلى الجمهور[59] "As the crucial shift from patron to piblic"، وخرج الكاتب من الدائرة الضيقة للزبون الخاص الذي كان يستطيع الحصول على المخطوط باهظ التكاليف، "ووصل الكاتب إلى الجمهور العريض المتجانس بطريقة دائمة وكافية في مجتمع السوق Market society[60] الذي أوجده المطبوع، وتحولت صورة انتقال الفكرة من إطارها الضيق قبل ظهور الطباعة إلى جمهور القراءة الواسع، الذي يعتمد على النظرة ذات الثبات الآلي في حالة الاعتماد على الرؤية، بدلًا من جماعة المستمعين auditoy[61]" وقد أتاح ذلك الروح الاستقلالية لدى الجمهور في موازاة التعبير الذاتي لدى الأديب.

9. **ظهور الأديب**:

وبهذا التطور الذي خلق التحرر والانفصال والقدرة على التجربة الذاتية والإبداع في الفن والأدب، والذي خلق الجمهور العام بعد الامتداد الطباعي الجديد، والتطور الجديد في شكل التأليف والكتابة وظهور الوحدة الموضوعية في عملية التأليف، والعلاقة الجديدة بين الكاتب وجمهور أو جماهير واسعة ليست بينهما معرفة بالتحديد. بهذا التطور "وُلد الأديب أو رجل الأدب Man of letters"[62]، (الذي يتفرغ للتأليف في موضوعات أدبية)، والذي أصبح يكتب للجمهور بدلًا من مخاطبة الزبون (ملكًا أو غنيًّا أو صاحب جاه) في عصر المخطوط المتصف بالندرة والخصوصية وارتفاع التكلفة، وحسب تعبير ماكلوهان، فقد شهد عصر

المخطوط وجود المؤلف (auther) أما الأديب (Man of letters) فهو نتاج عصر المطبوع؛ حيث استطاع أن يصل إلى جمهور عريض متجانس مع الإنتاج الواسع للمطبوع[63].

10. **ظهور أشكال جديدة من الأدب:**

ولقد تراكمت كل هذه التطورات في طبيعة التأليف، والكتابة، وفي العلاقة الجديدة بين الكاتب "وجمهوره" وفي نمو روح التعبير الذاتي، والمهارات والخصائص الذهنية التي اكتسبها إنسان القراءة، حتى هيأت الظروف لظهور أشكال جديدة من الأدب والفن. ويذكر ماكلوهان أنه "توجد إشارات غير مباشرة، عن التأثيرات التي أحدثها الكتاب المطبوع بوفرة، في الأعمال الأدبية لكل من (رابليه Rabelais) (1495 – 1553م)، وسرفانتس Cervantes (1547 – 1616م) ومونتيني Montaigne (1533 – 1592م)، وسويفت Swift (1667 – 1745) وبوب Pope (1688 – 1744)، وجويس Jouce (1882 – 1941)، الذين استخدموا الطباعة لكي يخلقوا أشكالًا جديدة من الفن"[64].

وكانت الرواية هي أكثر الأشكال الأدبية جذرية في مجتمع السوق في القرن 18، وكان قد سبقها النثر الموزون "Equiton prose" ... وهذا التقدم المفاجئ في النثر الموزون، هو الذي مكَّن فجأة مجرد مؤلف author، من أن يصبح أديبًا Man of letters، ويستطيع أن يصل إلى جمهور عريض متجانس في مجتمع السوق[65].

11. تطوير فروع جديدة في العلم:

"ولقد كان التعليم كله تقريبًا قبل جوتنبرج في يد الكنيسة في أوروبا، وكانت الكتب المخطوطة باهظة الثمن، وكان النسخ مجهِدًا وغير معتنى به أحيانًا، واستطاع عدد قليل من الكتاب الوصول إلى جمهور كبير ولكن بعد زمن من وفاتهم[68]. كما غيَّرت الطباعة من نظام الدراسة والتعليم، فكان الكتاب أول آلة تعليمية بعد أن أصبح أول سلعة تنتج بالجملة[69] في تاريخ الإنسان. وقد أشرنا إلى أن عصر المخطوط كان هو عصر الزبون؛ حيث كان يتم تفصيل الطلب وهو (المخطوط) حسب إمكانيات الزبون ورغباته، أما عصر المطبوع فهو عصر الجمهور لأن المطبوع ينتج بالجملة وبشكل متماثل في الطبعة الواحدة.

وهكذا فقبل الطباعة كما يلاحظ ماكلوهان، كانت ثقافة المخطوط تساند عملية شفهية في التعليم، سُميت بالمدرسية أو الإسكولائية (Scholastisim) (التي امتدت بمعناها الواسع من القرن 9 الميلادي إلى نهاية القرن 14 أو بداية القرن 15 الميلادي)، ولكن بعد أن وفر المطبوع نفس النص أمام أي عدد من الطلاب أو القراء، سرعان ما انتهى النظام الإسكولائي (المدرسي) للمناظرة الشفهية، وقد وفر المطبوع ذاكرة جديدة واسعة (أي ذاكرة ورقية)، تحفظ كتابات الماضي، مما جعل الذاكرة الشخصية غير كافية أو لا يعول عليها[70].

"وقد هيأت الطباعة لدعوة لوثر بالتحول من الاحتكام إلى البابوات إلى الاحتكام إلى الإنجيل، وسمحت بعد ذلك بدعوة العقليين إلى الاحتكام إلى العقل، وقضت على الاحتكار الكهنوتي للتعليم، ويسرت الاتصال والتعاون بين العلماء على مستوى دولي[71].

12. **ظهور وتحديد الوظائف والتخصص الدقيق:**

وكان للامتداد الطباعي الإنساني نتائج اجتماعية أخرى متعددة، تولدت عنها ظواهر جديدة، من أهمها التصنيع والأسواق العامة، فقد وفرت الطباعة أو لسلعة Commodity قابلة للإنتاج المتكرر المتماثل Uniformly repeatable، وأول إنتاج بالجملة Mass production يتبع نظام التجميع line Assembly[75]؛ حيث يقوم كل عاكل بإنجاز عملية خاصة في السلعة، ولك يكن ذلك موجودًا في إنتاج أية سلعة سابقة على المطبوع، وقد تحقق ذلك نتيجة لما وفرته الطباعة من الاستمرارية Continuity والتماثل Uniformity والتكرارية، وهي من أسس الإنتاج الصناعي والتسويق[71]. كما أن الطباعة غيرت من عمليات التسويق[77]؛ حيث كان الكتاب أيضًا أول سلعة يمكن أن تحمل سعرًا محددًا، وهكذا وجد شكل محدد لنظام السعر، ولم يكن غريبًا أيضًا أن يظهر في هذه البيئة الجديدة مفهوم العجلة والآلة وخط الإنتاج المتتابع، وكلها أفكار ميكانيكية تتمشى تمامًا مع وسيلة الطباعة بحروفها المرصوصة جنبًا إلى جنب في شكل أسطر محتوية على كلمات متتالية[78].

15. **ظهور القومية:**

تحتل مسألة ظهور القومية Nationality لدى أمم العالم احتمام كثير من المؤرخين وعلماء السياسة والاجتماع، ومن بين التفسيرات الهامة للعومل التي أدت إلى ظهور القومية، تفسير ماكلوهان الذي نعرضه هنا، فبعد أن اتضح كيف أتاح الامتداد الطباعي للإنسان فرصة وجود جمهور قارئ، وظهرت صورة الجمهور

التي بدأت تتسع بمرور الزمن، أصبح من الممكن "ظهور جماهير على مدى قومي، بعد أن كانت تكنولوجيا المخطوط عاجزة عن ذلك"[79].

"ولقد مكنت الحروف الهجائية (وامتدادها عن طريق الطباعة) من امتداد قوة المعرفة، وحطمت روابط الإنسان القبلي، وبذلك جزأته داخل تكتل يتكون من الأفراد"[80]. "وأصبح الإنسان الذي خلقت لديه القدرة على التفكير المنفصل عن الانفعال أو الشعور، يمتلك القدرة على الفعل المستقل، وانفصل عن العالم القبلي ذي الروابط الأسرية القومية التي تتحكم في الحياة الشخصية والاجتماعية"[81]. وهكذا فإن تحطم العلاقات والروابط التقليدية القَبَلية، وظهور استقلال الفرد وعدم انضوائه في هذه الإطارات القديمة الضيقة، نتيجة للقوة الانفصالية التي تنمي ذاتية الفرد؛ حيث أوضحنا ما تقوم به القراءة من انفصال ثم اتصال، أس انفصال عن العلاقات الضيقة في الجماعة التقليدية، واتصال بآفاق أوسع وأفكاره واردة من الآخرين على اتساع رقعتهم وانتماءاتهم، في إطار ذلك ظهرت نتائج اجتماعية وسياسية خطيرة؛ حيث يلاحظ ماكلوهان "أن ما أطلقنا عليه اسم أمم Nations في القرون المعاصرة، لم يسبق ولم يكن الممكن أن يسبق مجيء تكنولوجيا جوتنبرج"[82]، فقد أوجد المطبوع أشكالًا جديدة تمامًا لتوسيع وامتداد الطاقات الاجتماعية، وبعث طاقات نفسية واجتماعية هائلة في عصر التهضة، كما هو الآن في اليابان أو روسيا، وذلك بإخراج الفرد من جماعته التقليدية، وظهور شكل جديد من العلاقات ينضم فيه فرد إلى فرد، في تكتل جماهيري عظيم من القوة agglomeration of power Massive[83].

ويستند ما يرصده ماكلوهان من نتائج اجتماعية أدت إلى ظهور القومية، إلى أساسين:

1. تأكيد استقلال الفرد ونظرته الموضوعية المتجردة، التي تمكنه من فهم الآخرين والاقتراب منهم نفسيًا وفكريًّا.
2. إمكانية ظهور جماعة أكبر يرتبط بها الفرد، وهي الأمة، مما يعني ظهور القومية.

وفي دراسة عن المجتمعات النامية، أشار ليرنر Lerner إلى صفة التفتح السمح، والاستشعار بالغير Empathy، هي الصفة الأساسية الهامة في تطور المجتمع النامي ... والاستشعار بالغير بكل بساطة هو القدرة على أن يرى الإنسان نفسه في موضع الشخص الآخر، وهذه مهارة لا غنى عنها لمن خرجوا من حجرة المجتمع التقليدي .. والاستشعار بالغير هو الأسلوب الشخصي الغالي في المجتمع المصري وحده، فهذا المجتمع يتيمز بكونه صناعيًّا، حضريًّا، متعلمًا، ومشاركًا، والمجتمع التقليدي لا مشاركة فيخ، فهو يوسع نطاق الناس عن طريق القرابة، ويجعل منهم مجتمعات معزولة بعضها عن بعض، ومعزولة عن مركز ما"[84].

ولعل ذلك يلقي الضوء على كثير من المشاكل التي تعترض تطور المجتمعات التي مازالت في طريق النمو وتعطي تفسيرًا لأوضاعها الاجتماعية، يعالج جذور المشكلة من الناحية النفسية والاجتماعية، فمعظم النتائج الاجتماعية التي ينسبها ماكلوهان إلى حضارة الطباعة والقراءة، تفتقدها المجتمعات التي لم تعش هذه المراحل الحضارية. ورغم مرور خمسة قرون على ظهور الطباعة، فإن "التعليم لا يزال هو الظرف العام المحيط، في جزء صغير من العالم، ومازالت

أمريكا اللاتينية وآسيا وإفريقيا وأجزاء من أوروبا في مرحلة ما قبل التعلم، ولذلك فإن تكوينات الظروف المحيطة بهذه المناطق مازالت تعتمد على السماع"[85].

ومازالت علاقات الأفراد فيها تقوم على أسس وارتباطات قَبَليَّة أو ضيقة، ومازالت تفتقد هذه المراحل التحليلية التركيبية، التي فككت علاقات الإنسان القبلي وأدمجته في جامعة أكبر، ومهدت لظهور القومية كثمرة من ثمار حضارة القراءة، ولعل ذلك يعطي مزيدًا من الفهم لما يحدث لفكرة القومية في العالم العربي من امتداد وانتكاس، نتيجة لتعدد المراحل الحضارية والقرائية التي يمر بها كل مجتمع محلي من المجتمعات العربية.

وينبغي ألا نفهم نظرية ماكلوهان بخصوص تأثيرات المطبوع بطريقة سطحية أحادية البعد، بل يجب أن نتسلح بالنظرة الجدلية التي ترى الشيء ونقيضه مُجتمعين معًا، وبعمق فكرتنا عن تأثير القراءة ملاحظة ثاقبة ذكرها ويليام جراي W.Gray في دراسة عن القراءة؛ حيث لاحظ أن القراءة منذ العصور المبكرة أي قبل ظهور الطباعة بعشرات القرون – قد خدمت غايتين على طرفي نقيض:

(أ) فهي من جهة كانت قوة موحدة عظيمة، تميل إلى توحيد الفرق الاجتماعية (Socisl groups) عن طريق الإمداد بخبرات مشتركة وبديلة Common and vicarious، وتربية اتجاهات ومُثُل وتطلعات مشترَكة.

(ب) ومن جهة أخرى قامت بدور القوة المحطِّمة التي تجنح إلى تعظيم الفروق بين الفرق الاجتماعية، وذلك بتدعيم الآراء المتباعدة، وهكذا خدمت القراءة كلًّا من غايتي البناء والهدم[86].

ومن الواضح أن ماكلوهان يضع في اعتباره مجتمع الطباعة الذي خلق الجمهور القارئ والإنتاج الواسع للمطبوع، ولم يضع في اعتباره قضية معرفة مجتمع ما للكتابة، وإلا كان مسئولًا عن التفسير الحضاري لأبعاد أخرى كثيرة ترتبط باختراع الكتابة والحضارات القديمة التي أبدعتها، وذلك موضوع لم يتدخل فيه ماكلوهان، بل اعتبر كل مجتمع لم يتعلم القراءة بشكل جماهيري مجتمعًا شفهيًّا، حتى ولو كان من أقدم المجتمعات رسوخًا في الحضارة؛ لأن القراءة في هذه المجتمعات ليست جماهيرية حتى الآن.

ومن الواضح أيضًا أن دراسة الحضارة الإسلامية مازالت تحتاج إلى دراسة أكثر تعمقًا سواء على ضوء نظرية ماكلوهان أو ضوء مناهج ونظريات أخرى؛ لأن الحضارة الإسلامية هي حضارة "الكتاب" أو النص وهو القرآن الكريم الذي تبلورت وازدهرت حوله حضارة هائلة، ولم تتأثر أمة أو حضارة مثلما تأثرت الحضارة الإسلامية بنص القرآن الكريم، فقد نشأت حوله علوم كثيرة لخدمته وتفسيره، ونشأت كيانات معرفية مستقلة وشامخة بنيت على هذه العلوم المساعدة، حتى كونت ثقافة متكاملة في تاريخ الحضارة الإسلامية.

ولكن تفسيرات ماكلوهان للحضارة على ضوء حضارة جوتنبرج، تعطينا فرصة هائلة لتأمل الماضي والحاضر والمراحل الاجتماعية والفكرية والنسب الانفعالية والإدراكية التي يعيشها كل من المجتمعات العربية، سواء في ظل بقايا ثقافته الشفهية أو تقدماته القرائية الطباعية، وخصوًا وأن حضارة الكتاب مهددة بوسائل الاتصال الشفهية الإلكترونية الحديثة، التي تكاد في بعض البلدان النامية ترث مباشرة المراحل الشفهية القديمة، مع اختزال المراحل القرائية التي بنيت عليها

مقومات الحضارة الغربية في صورها الصحية الشامخة، وليس في صورها المتهالكة التي ننشغل بها في رؤية أُحادية مجزوءة.

كما أن من المهم أن نوضح أن أفكار ماكلوهان وتفسيراته رغم براعتها وإبداعها وقيمتها العلمية، لا يمكن أن تنسب كل الفضائل للثقافة الكتابية الطباعية فحسب، بحيث ننكر كل فضائل ما قبل هذه الثقافة، أي الشفاهية القديمة والحالية، والمستقبلية.

وإذا كانت هذه الدراسة قد نجحت ولو بدرجة متواضعة في عرض أفكار ماكلوهان ومنهجه، بحيث تثير لدى القارئ ردود أفعال متعددة تتراوح ما بين التأييد لبعض أفكاره والاعتراض أو التحفظ على البعض الآخر، فإن ذلك هو أعز ما يطمح إليه الباحث؛ لأن الأفكار المبدعة هي التي تثير القلق والتساؤل، وتحفز العقل لدراستها وبحثها؛ لتستمر جدلية الإبداع والابتكار، وليس من الممكن أن تظهر نظرية صحيحة بصورة مطلقة، ويكفي أن تطرح النظرية مزيدًا من الفهم للظواهر والعلاقات الخفية والكامنة. وثمة جوانب هامة في نظرية ماكلوهان، تتعلق بما يطرحه بالنسبة لتأثيرات وسائل الاتصال الإلكترونية الحديثة كالراديو والتليفزيون، وهي مجال خصب لمزيد من الدراسات في المستقبل بمشيئة الله.

الهوامش

1. انظر في هذا الموضوع الكتاب التالي: حسني الشيمي: الورقية واللاورقية؛ أو الكتاب بين البقاء والزوال، القاهرة، د.ن، 1992، ص191.
2. إبراهيم إمام: نظريات الإعلام ووسائل الاتصال بالجماهير، القاهرة، الأنجلو، 1969، ص63.
3. أونج، والتر: الشـــفاهية والكتابية، ترجمة حســـن البنا عز الدين، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1964، ص86-87.
4. ديورانت، ول: قصـــة الحضـــارة، مج6 ج1 (22)، ترجمة عبدالحميد يونس، القاهرة، جماعة الدول العربية، 1968، ص276.
5. Spengler, Oswald (1880-1936): The decline of the West, N.Y, A. A. Knopf, 1932 Vol 2, P. 461-63.
6. أونج، والتر ج: الشفاهية والكتابية.. ص73-74.
7. المرجع السابق، ص86.
8. Waples, D., B. Berelson & F. R .Bradshaw: What reading does to people: a summary of evidence on social effects of reading, Chiago, Chicago ,Univ.Pr., 1940.
9. Winger, Howard W. "Historical perspectives on the role of the book in society", L.Q.Vol.25 (1955), P. 295-305.
10. أونج، والتر ج: الشفاهية والكتابية ... ص87.
11. McLujan, M. Understading media: the extensions of man . N,Y., The New Am. Lib., 1966, P. 156.

12. ظهرت ترجمة عربية لهذا الكتاب بياناتها: (ماك لوهان، مارشـــال: كيف نفهم وسـائل الاتصـال؛ ترجمة خليل صـابات وآخرين، القاهرة، دار النهضـة العربية، 1975، ص411.

13. McLuhan, M.The Gutenberg galaxy: The making of typographic man. Toronto, Univ.of Toronto Pr., 1962, P.265.

14. McLuhan, M.The medium is the message, London , Routledge & Kegan Paul, 1973, P. 26.

15. McLuhan, M. Understading media: the extensions of man . P 156.

16. McLuhan, M.The medium is the message, P.31-32.

17. McLuhan, M.The Gutenberg galaxy, P.4.

18. McLuhan, M.The medium is the message, P.38-39.

19. McLuhan, M.The Gutenberg galaxy, P.4.

20. McLuhan, M.The Gutenberg galaxy, P.40.

21. Ibid, P.34-37.

22. إبراهيم إمام: نظريات الإعلام ووسائل الاتصال بالجماهير ... ص64.

23. جيهان رشتي: الإعلام ونظرياته في العصر الحديث، القاهرة، دار الفكر العربي، 1971، ص33-331.

24. McLuhan, M.The medium is the message, P.22

25. Ibid, P.41.

26. Ibid, P.154.

27. جيهان رشتي: المرجع السابق، ص346.

28. المرجع السابق: 342-343.

29. المرجع السابق: 331.

30.McLuhan, M.The medium is the message, P.5
31.McLujan, M. Understading media, P. 157.
32.Ibid
33.McLuhan, M. "The cool Medium", Cantor, Norman F. and Micheal S. Werthman (eds.): The history of popular culture. N.Y, Macmillan ,1968 ,P. 723.
34.McLujan, M. Understading media, P. 158.
35.Ibid, P.157.
36.McLuhan, M.The medium is the message, P.50.
37. أونج، والتر: المرجع السابق، ص110.
38. المرجع السابق، ص86.
39.McLujan, M. Understading media, P. 157.
40.Ibid, P.162.
41.McLuhan, M.The medium is the message, P.156.
42.McLuhan, M. "The cool Medium", P.723.
43. جيهان رشتي، المرجع السابق، ص340-341.
44.McLuhan, M.The medium is the message, P.157.
45. جيهان رشتي، المرجع السابق، ص340.
46.McLuhan, M. "The cool Medium", P.723.
47.McLuhan, M.The medium is the message, P.50.
48.McLujan, M. Understading media, P. 157.
49.Okasha, Sarwat: An encyclopaedic dictionary of cultural terms, Cairo, Egypt, Intern, Publishing Co. Longman, 1990, P. 101.
50.McLujan, M. Understading media, P. 157-158.
51.Ibid, P.157.
52.Ibid.

53.Ibid, P.162.
54.McLuhan, M.The Gutenberg galaxy, P.273.
55. ديوي، جون: الفن خبرة / ترجمة زكريا إبراهيم، القاهرة، دار النهضـــــة العربية، 1963، ص485.
56. ديورانت، ول: المرجع السابق، ص281–282.
57.McLuhan, M.The Gutenberg galaxy, P. (A).
58.McLuhan, M.The medium is the message, P.122.
59.McLuhan, M.The Gutenberg galaxy, P. 274.
60.Ibid, P.273.
61.Ibid.
62.McLujan, M. Understading media, P. 162.
63.McLuhan, M.The Gutenberg galaxy, P. 273.
64.McLujan, M. Understading media, P. 157.
65.McLuhan, M.The Gutenberg galaxy, P. 273.
66.McLujan, M. Understading media, P. 161.
67. ديورانت، ول، المرجع السابق، ص276.
68.Ibid, P.157.
69.Ibid, P.158.
70.Ibid.
71. ديورانت، ول، المرجع السابق، ص281–282.
72.McLujan, M. Understading media, P. 159-160.
73. جيهان رشتي، المرجع السابق، ص336–338.
74.MC Luhan, M: Op. Cit, P.159-160.
75.McLuhan, M.The medium is the message, P.50.
76.McLujan, M. Understading media, P. 161.
77.Ibid, P.158.

78. إبراهيم إمام، المرجع السابق، ص64.

79.McLuhan, M.The Gutenberg galaxy, P(A).

80.McLujan, M. Understading media, P. 156.

81.Ibid, P.158.

82.McLuhan, M.The Gutenberg galaxy, P(A).

83.McLujan, M. Understading media, P. 157.

84. شـــرام، ولبور: أجهزة الإعلام والتنمية الوطنية: دور الإعلام في البلدان النامية، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للتأليف، 1970، ص171–172.

85. جيهان رشتي: المرجع السابق، ص340.

86.Gray, W.S "Reading". (Encyclopaedia of Education Research.. P.967-968.

قائمة ببليوجرافية

1. إبراهيم إمام: نظريات الإعلام ووسائل الاتصال بالجماهير، القاهرة، مكتبة الأنجلو، 1969.
2. أونج، والتر ج: الشفاهية والكتابية، ترجمة حسن البنا عز الدين، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1994.
3. جيهان رشتي: الإعلام ونظرياته في العصر الحديث، القاهرة، دار الفكر العربي، 1971.
4. ديورانت، ول: قصة الحضارة، مجلد 6، ج1 [22]، ترجمة عبدالحميد يونس، القاهرة، جامعة الدول العربية، 1968.
5. ديوي، جون: الفن خبرة، ترجمة زكريا إبراهيم، القاهرة، دار النهضة العربية، 1963.
6. شرام، ولبور: أجهزة الإعلام والتنمية الوطنية.. دور الإعلام في البلدان النامية، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1970.
7. Gray, W. S: “Reading: Sociology of reading”. (Encyclopaedia of Educational Research, ed.by W.S. Monroe. N.Y ,Macmillan, 1950, PP.967-971.
8. Mc Luhan, Marshall: “The cool medium: in) Cantor, Norman F & .Michael S. Werthman (eds): The history of popular culture. N.Y, Macmillan, 1968, PP718-726.
9. Mc Luhan, M: The medium is the message ..London, Routledge & Kegan Paul, 1973.

10. Mc Lihan, Marshall: Understanding media: the extensions of man, N. Y. The New American Library, 1966.
11. Okasha, Sarwat: An encyclopaedic dictionary of cultural terms. Cairo, Egyotion International Publishing Co, Longman, 1990.
12. Spengler, Oswald (1880-1936): The decline of the West ,N. Y, A.A. Knopf, 1932.
13. Waples, Douglas, B. Berelson, F.R. Bradshaw: What reading does to people? A summary of evidence on the social effects of reading ,Chicago, Chicago Univ. Pr., 1940.
14. Winger ,Howard W. "Historical perspectivrs on the role of the book in society) ,"Library Quarterly, Vol 25, 1955, PP.295-305.